الفصل الرابع

العصر الجاهلى

وصف السلاح والحرب

الرمح – السيف – القوس – الدرع – المعركة

السلاح

لا بد من السلاح فى حياة البادية ، فهى غزو أو صيد ، يدافع به العربى عن نفسه ضد عدوه من الإنسان أو الحيوان . وكان هذا السلاح معدوداً ينحصر فى السيف والرمح والقوس والدرع والسهم والنبل ؛ وهى من حديد أو شجر . وقد تعاقب الشعراء على وصفها واعتزوا بها ، فهى عدة الشجاعة والفخر ، ووسيلة المديح والقوة . وقد عنى العرب بها عناية عظيمة فأطلقوا عليها الأسماء وأكثروا فى ذلك ،حتى كانت لهم فيها كتب كثيرة تضم ثروة عظيمة من مفردات ، وكان من وراء هذه الكتب معاجم غنية واسعة .

وأوس بن حجر ، هو أحسن الشعراء وصفاً لها فيما ترى كتب الأدب ، فقد انصرف إلى الشجاعة والبطولة ، ورسم سلاحه كله فى قصيدة طويلة، سنعرض لمعانيها فى شىء من الإيجاز لنبلغ أولى صوره ورسومه قال :

لقد أعددت للحرب بعد ما كشر نابها رمحاً صلباً كأن كعوبه نوى التمر فى

النعومة والملاسة صنعته ردينة فأحسنت صنعاً ، فهو يلتمع فى نصله كما يضىء مصباح الملوك فى يوم عيد .

وأعددت درعاً ملساء أنفق ناسجها عاماً كاملاً فى صنعها ، تشبه الغدير فى تماوجه حين تعبث به الريح ويداعبه النسيم ، فتلتمع كأن أشعة الشمس قد صادفت مستشرفاً من نبت صغير منفرد .

وأعددت كذلك سيفاً مهنداً كأن حده برق تلألأ فى وسط سحاب ، إذا سل من غمده اشتد لمعان جوهره كما يلتمع إناء الشرب وقد صنع من لجين ، فكأنه فى التماع صفحتيه دبيب نمل صاعد وآخر نازل .

وجهزت قوساً صنعت من فرع شجرة نبتت فى جبل مجلل بالسحاب على ظهر صخر أصم فاكتسب صلابته من الصخر ، قطفه صاحبه فى عناء كبير ، وخاطر فى سبيل الوصول إليه ، لأنه من العود النادر فى صلابته ومنعته ، فإذا بلغه قطفه ، وأمر شفرته عليه وأرسل سكينه فصقلها وجرّدها صفراء لا يعيبها قصر ولا طول . فإذا تناول الرامى هذه القوس وأنبض الوتر سمع صوتاً حنوناً ، وإذا شد السهم ذهبت بعيداً .

والكنانة التى أعدها ، حشاها بالسهام من فروع الأشجار الغريبة ، وقد تأنق فيها صانعوها وتمهلوا فى صقلها ، فركبت فيها النصال حمراً كجمر الغضا فى يوم ريح ، فلما تمت كساهن ريشاً من بلاد اليمن أغبر يميل إلى السواد .

هذه عدة الشاعر : رمح ودرع وسيف وقوس وكنانة ، وصفها الشاعر فى قصيدة واحدة وصفاً دقيقاً ، وذكر منبتها ومنشأها وقصة صنعها وأوغل فى التفصيل حتى لم يترك قولاً لقائل . وقد أسهب فى قوسه فخصها بثمانية عشر بيتاً لأنها كانت أحب سلاحه إليه .

والشماخ بن ضرار وصف قوسه وخص بها كثيراً من الأبيات ، قص فيها ما قام به القواس فى تحسس الأشجار والبحث عن صلابتها ومتانتها والتعرف إلى

جدرها حتى إذا وقع على ضالته تناولها بالفأس ، ولبث عامين كاملين يثقفها ويقومها ؛ فإذا جاء الموسم أقبل بقوسه فخوراً مزهواً فباعها وهو دامع العين ، وأما الشارى فقد اختبرها فرأى أن وترها يترنم كترنم الثكلى ،وأنها تصوت حين يخترق سهمها جسد الظبي ، فلا مهرب له منها ولا تنجيه قوائمه من سلطانها .

والشماخ مثل أوس فى معانى قوسه ، اختار الشجر واصطفى القاطف ، ووصف ما بذل من الجهد فى سبيلها . وقد سار كثير من الشعراء الجاهليين على سنن أوس ،فجمع راشد اليشكرى فى قصيدته وصف السيف المشرفى القاطع ، والقوس ذى الصوت الحنون ،والرمح الأسمر الصلب ،والدرع المضاعفة النسج ،وفعل مثله ثعلبة العبدى فجمع فى قصيدته وصف الدرع والرمح والقوس والسيف .

الحرب :

وكثرت الحرب بين العرب فاعتبروها وسيلة من وسائل الرزق فيها الغارة والسلب والثأر ، بل فخروا بها وتمدحوا بشجاعتهم فيها ،فهى شارة القوة ودليل البأس ، وقد خلق الرجال لخوض غمارها ، فكانت تأكل منهم وتهد من قوتهم وتضعف من نسلهم ، ولذلك سعوا إلى كثرة الأولاد ليعوضوا على القبيلة شبانها وفرسانها ، وهكذا شغلت شعراءهم فوصفوها ورسموا ما دار فيها من طعان ونزال ، وصوروا الخيول والأسلحة وما يقع من أصوات خلال المعركة ،وما تنتج من ضحايا ، ونظر كل منهم إليها نظرة خاصة .

وتروى كتب الأدب أن دريد بن الصمة أكثر الفرسان غزواً وأبعدهم أثراً وأكثرهم ظفراً ، وقد قتل يوم حنين ،فعاش فارساً ومات فارساً ، وقد وصفها وهو يحامى عن أخيه عبد الله قال : أقبلتُ على أخى والرماح تنوشه من كل حدب كما تقع الشوكات فى الثوب المنسوج ، فكنتُ كالناقة تقبل على ولدها الذبيح تشمه وتتحسسه . فلما دخلتُ الميدان تناولتنى الرماح وشققت جلدى ،ولكننى صابرتُ وطاعنت الخيل عن جثته حتى تفرقت جموعهم ، والمرء لا بد فان ، فعلام الخوف؟

فطاعنتُ عنه الخيل حتى تنفست وحتى علانى حالك اللون أسود (١)
قتال امرئ آسى أخاه بنفسه ويعلم أن المرء غير مخلد (٢)

وهكذا وصف غبار المعركة حوله وصور الخيل متألبة عليه ولكنه ناضل حتى انتصر .

واشتهر عنترة العبسى فى أساطير البطولة حتى ألصق به شعر كثير ، وقد نقل إلينا فى ديوانه أنه وصف فرقة كثيفة هاجم بها فرقة أخرى ، وصور الرماح المتساقطة والقنا المتهاوية كأنها شهب تتساقط فتنير الظلام، والخيل الضوامر تعدو عوابس بفوارسها المدججة بالسلاح ، وقد خف الحلم وثبت الفرسان للنزال .

ونقل إلينا فى شعره كذلك أنه حمل بمهره على قلب الكتيبة المعادية فزقها ، وما زال يناضل حتى اصطبغت الخيول الدهم بالحمرة من دماء الفرسان ، وكأنها تتعثر فى مستنقعات الدماء ، وعاد منتصراً يحمل رأس عظيم الكتيبة ، وخلف الأعداء كالنياق المذبوحة طعمة للجوارح :

حتى رأيت الخيل بعد سوادها حمر الجلود خضبن من جرحاها
يعثرن فى نقع النجيع جوافلاً ويطأن ، من حمى الوغى صرعاها (٣)
فرجعتُ محموداً برأس عظيمها وتركتها جزراً لمن ناواها (٤)

وقد صور شعراء آخرون حروبهم ضد القبائل ، فرسموا قوة الخيل وسرعة عدوها حتى لكأنها تبارى الحمر الوحشية وتقتحم الهيجاء ، وحتى كأن أسنتها حبال يمتح بها ماء البئر لشدة طولها وإدراكها الغاية . وصور بعضهم الحرب كزهير بن أبى سلمى فى سوءاتها وويلاتها ، فهى كريهة ،وهى كالنار تأتى على الهشيم ، وهى

(١) تنفست : تفرقت — حالك اللون : يقصد به الغبار الكثيف من وقع الحوافر حوله .
(٢) آسى : سوى — مخلد : خالد .
(٣) النجيع : الدم الأسود المتجمد — حمى الوغى : شدة الحرب .
(٤) جزر : ج جزور ، وهى الناقة تجزر — ناواها : ناوأها وعاداها .

كالرحى تطحن كل شيء، وكالناقة تلد أشأم الغلمان . وجعلها امرؤ القيس عجوزاً ليس لها خليل، وشمطاء دميمة قبيحة قد جزت شعرها وتنكرت فهى بغيضة لا يقربها لائم أو محب .

وكثيرة هى أشعار العرب فى الحروب ، وصل إلينا بعضها ، وضاع كثير منها مثل : حرب داحس والغبراء، والبسوس . والذى بقى يدل على ما ضاع ، فقد انتثر فى معلقات الحارث بن حلزة وعمرو بن كلثوم وقصائد الأخنس التغلبي والحارث المرى وعامر بن الطفيل ؛ وملأ صفحات التاريخ والأدب ؛ وهو سفر ضخم فى البطولة لو سعينا إلى تحقيقه وجلائه ودراسته لكانت لنا صور تبذ الملاحم اليونانية والرومانية والفارسية والهندية ، كالإلياذة والإنيادة والشاهنامة والمهابهارتا فى دقة الوصف وعمق الخيال .

وكلها تصور هذه الحياة الحزينة المتشابهة من غير تكلف أو صنعة ، فإذا ابتسمت حيناً كانت صورة الأمل الذى خالج قلب الشاعر، وبارقة الحلم التى راودت خياله إلى حين .